مكتبة المشورة الكتابية

لماذا تلقي باللوم على المخ؟

التمييز بين اختلالات التوازن الكيميائي والاضطرابات العقلية والعصيان

إدوارد ت. ويلش
Welch .T Edward

مركز دراسات المشورة الكتابية
NOUTHETIC

مقدمة

لقد أُعلنت التسعينيات من القرن العشرين رسميًا بأنها عقد المخ، وقد كان هذا لسبب وجيه.

- لفتت إصابة الرئيس ريجان بمرض الزهايمر Alzheimer's الانتباه الوطني إلى أمراض المخ المُعيقة والتي تسببت في صعوبات عملية لا تُحصى وألم لا يوصَف لمئات الآلاف من الأسر والأصدقاء.
- قدمت الأبحاث علاجات محتملة لأمراض المخ التي كانت في السابق بلا علاج.
- قدمت التقنيات الحديثة آراء غير مسبوقة عن المخ.
- أعاد الفلاسفة واللاهوتيون اكتشاف الجدل حول علاقة العقل والجسد.

ونظرًا لهذه الأحداث والمئات من الأحداث الأخرى، ربما يكون من الدقة أن نقول أن التسعينيات من القرن العشرين كانت مجرد الظهور الأول لأبحاث المخ المؤثرة. فالمزيد والمزيد لم يأت بعد.

لقد كنت طالبًا مهتمًا بالمخ منذ أن قمت ببحث حول أمراض المخ والفسيولوجيا الكهربائية للمخ في السبعينيات. ومنذ ذلك الحين، وجدت أن فهمًا بدائيًا لوظائف المخ قد يكون نافعًا جدًا عندما نحاول فهم ومساعدة الآخرين. على سبيل المثال، تساعدنا معرفة وظائف المخ على إجابة أسئلة

عن اختلالات التوازن الكيميائي ومدى ملاءمة الأدوية النفسية. ويُمكنها أن تساعدنا على فهم الأشخاص الذين تختلف قدراتهم على التعلُّم والتفكير عن قدراتنا. ويُمكنها أن تساعدنا كذلك على التمييز بين المشكلات الجسدية والروحية. في المادة التالية، أرجو أن أقدم بعض هذه المعلومات المفيدة.

ولكن، بالرغم من أنني متحمس لفهم طريقة عمل المخ، إلا أنني أتساءل ما إذا كان المخ قد حصل على اهتمام مفرط. تأمل مثلاً في بعض «**الاكتشافات**» الأخرى في التسعينيات والتي كانتأكثر إرباكًا.

- أصبح ريتالين هو الوصفة الطبية الشائعة للأطفال.
- تقلبات المزاج، والتي كان تُعتبَر في الماضي نتيجة ليوم سيء في المكتب، أو صراع مسائي مع الأطفال، أو خيبة أمل في العلاقات، تُعتبَر الآن نتيجة لاختلالات التوازن الكيميائي بالمخ، ويتم علاجها بالأدوية المضادة للاكتئاب أو، لمن يريدون مساعدة أكثر طبيعية، بنبتة سانت جونز أو غيرها من الأعشاب.
- أصبح لدينا شعور متزايد بأن المخ هو السبب الحقيقي للسلوك. وما بدأ باقتراحٍ بأن كيمياء المخ هي السبب الأساسي لتعاطي الكحول تضخم حتى صارت كيمياء المخ هي السبب الأساسي لكل مشكلة إنسانية بشكل حرفي.

هل اندهشت من قبل من الطريقة التي يتَّهم بها بعض الناس عقلهم، ويجعلونه مسئولاً عن بعض سلوكياتهم السيئة؟ شاهدت في أحد المرات مؤتمرًا صحفيًا بالتلفاز لأحد السياسيين المعروفين والذي جعلني أأسف

بشدة على عقل هذا الرجل. فقد أُعلن مذنبًا بدون أي دليل حقيقي.

لقد كان هذا السياسي المضاد للمخدرات نموذجًا يُحتذى به في فترتي ولايته. وبالرغم من مواجهته تهمًا قانونية بشكل مستمر، إلا أن أيًا منها لم تثبت. الاختلاس، وبيع الامتيازات السياسية، وتعاطي المخدرات – لقد كان يُتَّهم دائمًا ولكنه لم يوجَد مذنبًا أبدًا. والآن، تم القبض عليه متلبسًا أثناء شراء واستخدام العقاقير المُحرَّمة. وتم تسجيل ذلك كله على شريط. فماذا يفعل لكي يخرج من المأزق هذه المرة؟

بينما كان يتقدم نحو المنصة، صاح صحفيٌّ قائلاً، "لماذا فعلت هذا؟ لماذا كذبت علينا طوال هذه السنوات؟"

وقد كانت إجابته فورية. فقد قال "أنا لم أفعل ذلك، لقد اختل عقلي. لقد كان عقلي هو من فعل ذلك. إن مرضي هو من فعل ذلك!" ولم تكن هناك أي لمحة من الندم – بل مجرد سخط من أن شخصًا ما قد طرح مثل هذا السؤال.

كان عليَّ أن أهز رأسي بينما كنت أشاهد ذلك. فهو بالتأكيد سيختلق إجابة أفضل من تلك! لا يوجد دارس حقيقي للمخ يُمكنه أن يقبل مثل هذا العذر. وظننت أن جميع الصحفيين سيسخرون منه في غضون دقيقة بسبب هذه الإجابة.

ولكن لدهشتي، لم يضحك أحد. وبدا أن إجابته قد أرضت حقًا كل من كانوا حاضرين. ربما كانوا خائفين من أن يبدوا جاهلين بأحد

أبحاث المخ التي تدعم ادعاءات هذا السياسي. وربما لم يريدوا أن يهاجموا شخصًا ما كوغد إذ أنه قد يتحول ليصبح ضحية. وأيًا كان السبب، فقد بدا أن السياسي نجح في إسكات نقاده. وانتقل بالفعل إلى موضوع آخر.

إذا تم سؤالهم بشكل شخصي، ربما قال معظم من حضروا المؤتمر الصحفي أن هذا الرجل كان ببساطة يحاول أن يتجنب اللوم. ولكنهم سيشيدون به من أجل شيء واحد على الأقل: فقد عرف كيف يتغير مع الزمن. منذ بضع عقود، كانت أفضل محاولاته هي أن يلقي باللوم على نشأته. والآن، وباتباع بعض الاتجاهات الثقافية المعاصرة، فقد ألقى باللوم على عقله. ولم يجرؤ أي أحد على أن يتحداه.

هذا يعني أن مهمتنا في هذا الكتاب مضاعفة: أن نُعرِّف المجالات التي يلقى فيها المخ القليل من الاهتمام، وأن نبرز المجالات التي يلقى فيه المخ اهتمامًا (أو لومًا) مفرطًا.

بينما يبدو أن مشكلات الإنسان أصبحت أعمق وأكثر انتشارًا، صار الناس يبحثون في يأس عن حلول – وكلما كان هذا أسرع كلما كان أفضل! فالبعض يفكرون، كم سيكون رائعًا إذا تمكن قرص الدواء الصحيح أو التغيير الجيني من حل مشكلاتنا! ويتم تشجيع هذا الأمل عن طريق التقارير التي تشير إلى أننا على أعتاب علاجات ثورية للمخ لعلاج المشكلات التي كنا ننسبها من قبل للنفس.

كمسيحيين، نحن لسنا ساذجين بالرغم من ذلك. فنحن نعرف أننا لا نستطيع أن نقبل كل ما نسمعه على نحو أعمى كما نفعل مع حق الله.

يجب علينا أن نفكر في المعلومات التي تصلنا عن طريقة عمل المخ كما نفكر في أي معلومة أخرى، سواء كانت عن المال، أو التربية، أو أسباب سلوكياتنا: فنحن نراها من خلال عدسة الكتاب المقدس. وهذا يتطلب منا أن نفكر وننتبه ونصلّي عندما نسمع ونقيِّم الاكتشافات العلمية الحديثة.

بصراحة، لا يفهم العديد من الناس لماذا نحاول أن نفعل هذا. فهم يظنون أننا ضيقو الأفق، قديمو الطراز، ومرضى بجنون الشك، أو ...- حسنًا، يُمكنكم أن تملأوا الفراغ. معظم الناس وصل إليهم الانطباع بأن الباحثين يدخلون إلى معاملهم ويقررون الحقائق ببساطة. ثم، يقوم من وصلوا إلى تلك الحقائق بتقريرها لنا. ولكن الواقع ليس بهذه البساطة. فبالرغم من أن الملاحظات والاكتشافات تصل إلينا مغلّفة بلغة علمية، إلا أنها تكون أكثر من مجرد حقائق عندما نسمعها. في الواقع، وكما هو حال جميع المعلومات التي نستقبلها، تتم صياغة البيانات الخاصة بالمخ عن طريق مؤثرات مثل رغباتنا الشخصية وافتراضات ثقافتنا غير المعلنة.

في أحسن الأحوال، عندما يتم تنقيح أبحاث المخ لتصل إلينا، تكون مثل رسالة مشوهة تنتقل عبر لعبة طويلة من ''التليفون الخرب''. فباحث المخ الأصلي يهمس قائلاً، ''المخ أداة مذهلة تشارك أو تساهم في جميع السلوكيات.'' ولكن الشخص الأخير يسمع، ''لقد أجبرني مخي على فعل ذلك.'' هذا هو ما نسمعه غالبًا من جيراننا أو نقرأه في الصحف. وقد كانت تلك هي الرسالة التي استخدمها السياسي في المؤتمر الصحفي في محاولة للاحتفاظ بوظيفته.

لا تدعم الأبحاث المسئولة تعليقات السياسي، وهذا مؤكَّد، إلا أن بعض الأبحاث تشير بالفعل إلى أن المزيد والمزيد من تصرفاتنا هي نتيجة لطريقة عمل المخ أو اختلال وظائفه. ربما أثارت هذه الأدلة همسات قد أدت، عندما أُسيء تفسيرها، إلى الأعذار التي قالها السياسي.

هنا تكمن المشكلة. في بعض الأحيان يكون منطقيًا أن نلقي باللوم على المخ فيما يتعلق بسوء سلوكنا، وفي أحيان أخرى لا يكون الأمر كذلك. كيف يُمكننا أن نعرف؟ في حالة هذا السياسي، الإجابة واضحة. ولكن توجَد حالات أخرى، مثل تلك التي سنناقشها في هذا الكتاب، حين تكون الإجابة أقل وضوحًا.

ولكي نساعدك على التفكير في هذه القضايا والأسئلة، يُقدِّم الجزء الأول من هذا الكتاب المصادر اللاهوتية الضرورية للحوار مع علوم المخ. ولماذا تكون تلك المصادر لاهوتية وليست تكنولوجية أو علمية؟ لأن اللاهوت هو العدسة التي يفسر المسيحي من خلالها كل الأبحاث، ومن الضروري أن تكون عدستنا واضحة ودقيقة. للأسف، عندما يتعلق الأمر بعلوم المخ، تصبح عدساتنا ملطخة بشكل خاص، ونتيجة لذلك، فهي لا تتحكم في رؤيتنا. في الواقع، يبدو أن الكثير من الناس يخلعون عدساتهم الكتابية تمامًا عندما يفكرون في أبحاث المخ. ولذلك، فالجزء الأول سينظف ويلمِّع نظاراتنا اللاهوتية.

الهيكل اللاهوتي المقدَّم في الجزء الأول صريحٌ تمامًا: فقد خلقنا الله كوحدة تشمل جانبين على الأقل – الروح والجسد. فلا يوجد أي شيء جديد

هنا. هذا تصريح لاهوتي قد صمد لقرون. ولكن الأمر الجديد هو تطبيق هذا اللاهوت على بعض المشكلات العصرية.

باستخدام هذا اللاهوت وتطبيقاته المتشعبة، يضع الجزء الثاني هذا اللاهوت في إطار العمل. يتناول الجزء الثاني بعض التشخيصات والخبرات الحديثة، والتي تُنسَب جميعاً للمخ، وسندرسها من منظور كتابي. لن نناقش كل مرض وخبرة بالتفصيل. بدلاً من ذلك، سنتعلم طريقة التفكير التي تمكنك من التفكير بطريقة كتابية في المشكلات المحددة عندما تواجهها. وهذا، بدوره، سيُمكنك من الخدمة بشكل كتابي، بثقة وحكمة وشفقة.